اشتراكية الدولية الثانية

فى مجتمع مثل المجتمع المصرى كان من السهل أمام أفكار الاشتراكية الدولية الثانية أن تنتشر.. فالصلة الأساسية بين مثقفى مصر المتطلعين إلى التطور الاجتماعى وبين الاشتراكية تأتى عن طريق أحزاب الدولية الثانية وتأتى فى ظل سيادة الانتهازية فى صفوف هذه الأحزاب.

والحقيقة أن فكر الدولية الثانية قد تسلل إلى مصر من خلال أكثر من موقع.. وقد لعب إلى حد ما دورا إيجابيا فى لفت أنظار قطاعات واسعة من المثقفين المصريين نحو الاشتراكية.

ولسوف نرى فيما بعد أن الحزب الاشتراكى المصرى الذى تأسس عام ١٩٢١ كان تحالفا بين اشتراكيى الدولية الثانية وبين القوى الماركسية والاشتراكية الأخرى.

ومن هذه الزاوية فإن دراسة المصادر المصرية لهذا الفكر، وآرائها وأوضاعها الطبقية والمسار الذى اختارته لنفسها بعد أن بدأت مطاردة السلطات للقوى الاشتراكية كل هذه المسائل ضرورية حتى نلقى الضوء على معالم هذا الحزب الذى تكون سريعا فى مطلع العشرينيات رافعا راية الماركسية لأول مرة فى مصر.

ولقد قلنا: إن أفكار اشتراكية الدولية الثانية قد تسربت إلى مصر عبر مسالك مختلفة وسنحاول هنا.. أن نقدم بعض النماذج - وهى مجرد نماذج - للأفكار والمواقف والاتجاهات التى عبرت عنها أيديولوجية الدولية الثانية عندما تلاحمت مع فكر البرجوازية الوسطى والعليا فى المجتمع.

ولنبدأ بالحزب الوطنى.. وخاصة محمد فريد.. الذى أقام علاقات وثيقة مع الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية فى أوروبا..

وقد حرص فريد على حضور سلسلة المؤتمرات الدولية التى دعت إليها الدولية الثانية فحضر المؤتمر الثامن عشر للسلام ومنع الحرب الذى عقد فى استكهولم فى أغسطس ١٩١٠ وعقب عودته إلى مصر أسس جمعية السلام العام بوادى النيل برئاسة عزت بك شكرى كفرع مصرى لهذا المؤتمر..

وقد قررت اللجنة الدائمة للمؤتمر فى بون منح هذه الجمعية عضوية المؤتمر العالمى للسلام[١].

وقد حضر فريد أيضا مؤتمر السلام العام بجنيف فى سبتمبر ١٩١٢ ثم مؤتمر السلام العام فى لهاى فى أغسطس ١٩١٣.. ومؤتمر الأجناس المضطهدة Nationalities and subject races conference الذى عقد فى لندن (يناير ١٩١٤).

ثم المؤتمر الثانى للأجناس المضطهدة الذى عقد فى لوزان فى يونيه عام ١٩١٦.

وإذا كان حزب محمد فريد ليس عضوا فى الدولية الثانية ومن ثم فإن الفرصة لم تتح له لحضور المؤتمرات العالية لأحزاب هذه الدولية فقد حرص على أن يقيم علاقات بهذه الموتمرات وأن يقدم إليها وباستمرار مذكرات عن تطور الأحداث فى مصر.. فقدم مذكرات إلى مؤتمرات استكهولم فى أكتوبر ١٩١٧ ثم مؤتمر برن فى فبراير ١٩١٩.. ثم مؤتمر لوسرن فى أغسطس ١٩١٩.

وفى هذه المؤتمرات كان فريد يقيم علاقات مباشرة وفعالية مع كثير من ممثلى أحزاب الاشتراكية الديمقراطية ومن بينهم هندرسون رئيس حزب العمال الإنجليزى الذى تقابل معه أثناء انعقاد مؤتمر برن والذى قدم له وعودا كثيرة..

كذلك اهتم فريد بدعوة كثير من الاشتراكيين الأوربيين لحضور المؤتمر الوطنى المصرى الذى عقد فى بروكسل ١٩١٠.. فحضر من إنجلترا كير هاردى Keir Hardi زعيم حزب

العمال ومن الحزب الاشتراكى الفرنسى جوستاف روانييه Gustave Rounanet نائب رئيس واشتراكيون آخرون من ألمانيا وبولندا وإيطاليا.

وقد تولى الرئاسة الشرفية للمؤتمر على التوالى مستر بلنت وكير هاردى وأوجانيور Auegugneur النائب الاشتراكى الفرنسى عن ليون والسنيور دجوبرناتى Degubernati عضو مجلس الشيوخ الإيطالى.. وقد اعتذر السنيور دجوبرناتى عن حضور الجلسات لانشغاله فى أعمال المؤتمر القومى الإيطالى للسلام الذى عقد فى ذلك الحين بروما[٢].

ومن على منصة المؤتمر وجه محمد فريد تحية حارة إلى أعضاء مؤتمر السلام العام فى استكهولم مؤكدا تقديره العميق لنضالهم[٣] كذلك وجه تحية حارة إلى «كير هاردى الزعيم البريطانى المشهور ورئيس حزب العمال صديق المصريين والذى يعلن باستمرار تأييده العميق لكل الشعوب وخاصة للأمة المصرية، إن كير هاردى إنجليزى يكرس حياته من أجل إقرار السلم والعدل وإننى أدعو إلى تحيته تحية حارة»[٤].

وقد تلقى المؤتمر سيلا من برقيات التأييد من القوى الاشتراكية والسلامية فى أوروبا فهناك برقية من لوسيان لوفورايى Lucien Le Foryer ممثل جمعية «السلام من أجل العدل» الفرنسية.

وبرقيات أخرى من المجر وإيطاليا وبلجيكا وأيرلندا وألمانيا..

والحقيقة أن هذا المؤتمر - الذى لم يهتم المؤرخون بدراسة أعماله - يمثل مرحلة مهمة للغاية من تاريخ نضال الحزب الوطنى فهو محاولة لأحداث التحام حقيقى بين مثقفى الحزب ومثقفى أوروبا وخاصة اشتراكييها وهو أيضا محاولة جادة لوضع أساس اجتماعى مدروس للنضال الحزبى.

إنه محاولة من الحزب الوطنى لكى يقدم لجماهيره ولأصدقائه فى أوروبا ولنفسه أيضا جهدا فكريا ممتازا ودراسات عميقة لمختلف المشكلات الاجتماعية والسياسية التى تواجهها مصر..

فقد قدمت للمؤتمر سلسلة من التقارير المهمة مثل[٥]:

- مستقبل مصر حامد العلايلى.
- الامتيازات الأجنبية فى مصر مصطفى الشوربجى.
- التعليم فى مصر رفعت وفيق.

- التشريع فى مصر عبدالسلام ذهنى.
- دور الصحافة فى مصر عبدالرحمن الرافعى.
- الصناعة فى مصر على بك ثروت.
- تقرير عن حالة الجيش المصرى أعده عدد من ضباط الجيش المصرى لم يذكروا أسماءهم.
- الصحة العامة فى مصر منصور رفعت.
- الحالة الاجتماعية فى مصر طه العبد.

وفى اعتقادى أن هذه التقارير تمثل أول دراسة شاملة وعلمية يقوم بها حزب مصرى بهدف تحديد موقف واقعى من مختلف القضايا الاجتماعية والسياسية.

وفى اعتقادى أيضا أنها كانت خطوة ضرورية لإحداث تحول اجتماعى جاد فى مناهج الحزب وبرامجه وأفكاره.

كذلك فإن هذا المؤتمر كان فرصة مهمة لتجميع قوى عديدة خلف شعارات الحزب الوطنى، والذى يطالع وثائق هذا الموتمر يلاحظ كثرة عدد المندوبين المصريين وحماسهم ويلاحظ أن بينهم شخصيات لم تكن منتمية للحزب الوطنى - أو على الأقل لم يعرف عنها ذلك - مثل محمد حسين هيكل[٦].. وآخرين..

ولقد كان المؤتمر فرصة لكثير من اشتراكى أوروبا ليستعرضوا فيه آراءهم تجاه مسألة المستعمرات وهو موضوع تحدث فيه كير هاردى فى أكثر من جلسة من جلسات المؤتمر..

وكذلك وقف الاشتراكى الفرنسى جوستاف روانيه ليلقى كلمة مهمة قال فيها:

«أود أن أعرب لكم عن أسفى، أولا باعتبارى فرنسيا ينتقد موقف الحكومة الفرنسية من القضية المصرية وباعتبارى اشتراكيا ذلك أن حزبنا قد أسهم مساهمة كبيرة فى عقد الاتفاق الودى بين فرنسا وإنجلترا لكننى أعلن بأعلى صوتى أننا لم نكن نستهدف مطلقا إلحاق الضرر بمصر.. وإن النتائج التى ترتبت على هذا الاتفاق لم تكن سوى نتيجة لخيانة إنجلترا والحكومة الفرنسية.. لقد كان هدفنا الوحيد من هذا الاتفاق هو إقرار السلام، ولكن لا يمكن للسلام أن يستقر طالما كان هناك استعباد.. إننى كوطنى فرنسى وكاشتراكى فرنسى أتمنى تحرير الأمة المصرية تحريرا عاجلا وتاما»[٧].

ونلاحظ أيضا أن محمد فريد قد أدلى بحديث هام لجريدة الأومانيتيه الفرنسية فى أغسطس سنة ١٩١٠ وأنه واصل فيما بعد محاولاته لإقامة علاقات مع القوى الاشتراكية فى أوروبا.

وفى الداخل فإننا نلاحظ هذا التحول الذى طرأ على سياسة الحزب من تأييد للعمال فى إضراباتهم ومن تأسيس لنقابة عمال الصنائع اليدوية.. ثم إقامة مدارس الشعب الليلية.. ثم إنشاء التعاونيات التى ألح فريد كثيرا على الاهتمام بها..

ومن الأستانة يرسل فريد إلى عبدالرحمن الرافعى يقول:

«لم أسمع من مدة بتشكيل نقابات جديدة أو جمعيات تعاون.. ولعلنى أسمع قريبا بأخبار ما تؤسسونه من النقابات والجمعيات.. وإنى أقترح عليك أن تكتب تقريرا عن حالة النقابات بمصر وتاريخها وبعض إحصائيات عنها وعن أعمالها لنظهر للعالم شيئا من آمالنا العملية»[٨].

وفى برلين يدلى فريد بحديث لمراسل Berliner Tageblatt يقول فيه:

«إننا نبذل جهودنا لتعليم الشعب المصرى.. ولقد أسسنا فى المدن عددا من النقابات، وفى المدارس نقوم بتعليم العمال القراءة والكتابة.. كذلك أسسنا جمعيات تعاونية زراعية وبنكًا تعاونيًا.. لقد تعمدت أن أتحدث عن هذه الجهود بالتفصيل لكى أوضح أن حركتنا ليست مجرد حركة سياسية وإنما هى أيضا حركة اجتماعية واقتصادية»[٩].

لقد كان طبيعيا أن تترك هذه العلاقات والاتصالات باشتراكيى الدولية الثانية أثرا هاما فى مواقف فريد وآرائه.. وبدأت خطبه تتخذ اتجاهات جديدة تدافع عن العمال والفلاحين والقوى الكادحة..

وفى الجمعية العمومية للحزب الوطنى التى عقدت فى ١٩١٢/٣/٢٢ وقف فريد ليطالب أعضاء حزبه بواجبات جديدة:

«لا بد لكم من العناية بنقابات العمال وبث مبدأ التضامن بينهم والدفاع عن حقوقهم واستصدار القوانين الضامنة لهم عدم التكفف عند الشيخوخة أو عند الإصابة بما يمنعهم من الكسب. أرجعوا البصر إلى حال العمال فى مصر سواء عمال المصانع أو عمال الزراعة وأقصد بهم جماعة الفلاحين الذين لا يملكون أرضا ويعيشون من العمال باليومية أو من استئجار الأراضى.. تجدوا أنهم فى أحط دركات الفقر.. فالعامل لا يحصل على

قوت يومه إلا بعد أن يشتغل اثنتى عشر ساعة كل يوم على الأقل، والفلاح لا يصل إلى ما يسد الرمق، إلا أردأ أنواع الخبز بلا أدام وإلا بشق النفس»[١٠].

وعلى صفحات اللواء تنعكس هذه الاتجاهات فى كتابات صريحة عن الاشتراكية «إن المصرى كان لا يعرف شيئا عن الاشتراكية قبل عهد إسماعيل من الموظف الصغير إلى العامل الفقير إلا أن تطور النظام الاجتماعى أدى إلى ظهور الاشتراكية ونظرا لأن الأموال المستثمرة أجنبية وأن هناك الدين المصرى الرسمى والأهلى فإن نظرية إدخال مبدأ الاشتراكية فى الحكم لا يمكن تطبيقها على حالنا فى مصر بدون خطر يهدد كياننا، أما الاشتراكية من حيث تعاليمها الاجتماعية فإننا فى مقدمة من يدعو إليها ويبشر بها لأننا نرى فيها الضمان لحفظ التوازن ما بين غنينا الجاهل المتكبر وفقيرنا المجد البائس»[١١].

ولقد ثار نوع من الجدل حول طبيعة هذا المسلك وهذه العلاقات التى أقامها الحزب الوطنى تحت زعامة محمد فريد.. يحاول البعض أن يؤكد أنها كانت إرهاصات لاتجاه نحو الاشتراكية.. وينفى الآخرون ذلك[١٢] لكن الشىء الذى لا شك فيه أن هذه العلاقات مع اشتراكى أوروبا قد تركت آثارا واضحة على سلك العديد من شباب الحزب الذين سوف نراهم بعد قليل جدا من الزمن يكونون الجمعية المصرية فى باريس.. ثم نرى أسماء البعض منهم ضمن مؤسسى الحزب الديمقراطى.. وأسماء أخرى تسهم بدور فى تأسيس الحزب الاشتراكى.. ثم الحزب الشيوعى، أسماء مثل محمود عزمى، عصام الدين حفنى ناصف، مجدى الدين حفنى ناصف، طراف، عبده جوده، د.عبدالفتاح القاضى، ومنصور فهمى.. وآخرون[١٣].

هذا عن أبناء الطبقة الوسطى.. والبرجوازية الصغيرة من أعضاء الحزب الوطنى والعاطفين عليه..

لكن أفكار الدولية الثانية وجدت لنفسها سبيلا آخر.. عن طريق أبناء الذوات وأبناء الفئات العليا من الطبقة الوسطى الذين أتاح لهم ثراء أسرهم القدرة على السفر لتلقى العلم بالخارج..

وعاد هؤلاء بعد عدة سنوات تعج عقولهم وكتاباتهم بالحديث عن العدالة وعن الحرية.. وعن الاشتراكية..

ولقد كان تأثر البعض محصورا فى مجرد الاتجاه نحو الليبرالية مع مفاهيم اجتماعية متقدمة، لكن عديدا من هؤلاء ما لبثوا أن تحالفوا مع دعاة الاشتراكية، فإن أفكار الدولية الثانية فى ذلك الحين لم تكن لتختلف كثيرا عن أفكار الليبراليين.

ويكتب توفيق دياب ليصور موقعه وأفكاره عند عودته من بعثته الدراسية فى لندن.. يكتب موجها حديثه إلى «جون بول» قائلا: إنه عاد إلى بلاده «وفى صدره شعلة من نار الحماسة ونور المعرفة، أما الحماسة فللمثل العليا التى قرأها فى كثير من كتبكم، وأخذها عن كثير من علمائكم وأما المعرفة فبوجوه الإصلاح التى لا بد منها لكل شعب يريد النهوض، وإشعار ذوى السلطان أو العلم أو المال بأن سلطاتهم وعملهم ومالهم إنما هى أدوات فى أيديهم لخدمة المجتمع وأن قوام الحياة لأدنى المواطنين يجب أن يكون غذاء يكفيه.. ومسكنا صحيا يأويه، ورعاية طبية تحميه أو تشفيه وطرفا من التربية والتعليم يسمو بإنسانيته ويحقق نفعه لنفسه وللوطن»[١٤].

لكن النموذج المثالى للتحالف بين الليبراليين من أبناء الفئات العليا من المجتمع وبين بعض ممثلى اشتراكية الدولية الثانية هو «الحزب الديمقراطى».

فالحزب الديمقراطى لم يكن سوى تجمع سريع لعناصر ليبرالية (متأثرة بالفكر الغربى) وعناصر دينية متحررة وعناصر اشتراكية.

ومحمد حسين هيكل نموذج لهؤلاء الليبراليين الذين تأثروا بالفكر الغربى وهو يتحدث عن زيارته لباريس فيقول «ومرت الأيام وأنا أرى فى مدينة النور ألوانا من الحياة تفسح أمام النظر أفق التفكير وتزيد الإنسان إيمانا بحرية العقيدة والرأى وبأن التعصب ذميم وأن أول واجب للإنسان أن يديم البحث عن الحقيقة»[١٥].

ويترجم هيكل أجزاء من كتاب روسو ويهديها «إلى مصر الحرة، إلى القلوب الخفاقة بمعانى الحرية والعدالة والإخاء»[١٦].

والشيخ مصطفى عبدالرازق نموذج للعناصر الدينية المتحررة التى تجمعت فى أول الأمر فى جماعة «السفور» لتدافع من أجل التحرر فى فهم الدين والحياة.. وكان هو أيضا من دعائم الحزب الديمقراطى، بل إن الاجتماع التأسيسى للحزب تم فى قصر أسرته.

أما رواد اشتراكية الدولية الثانية فى الحزب الديمقراطى فيمثلهم د.منصور فهمى وعزيز ميرهم ومحمود عزمى.

ويروى محمود عزمى قصة تأسيس الحزب الديمقراطى فيتحدث عن لقاء بينه وبين د.منصور فهمى الذى حدثه عن «تأسس حزب سياسى تحدث بشأنه بالفعل إلى بعض أصدقائه من قبل وتم التفاهم فيما بينهم عليه وعلى الاسم الذى يطلقونه عليه وهو «الحزب الاشتراكى»[١٧].

لكن محمود عزمى يقنعه بأن يعدل عن تسمية «المولود الجديد بالحزب الاشتراكى وأن يستبدل به اسم «الحزب الديمقراطى».

ولم يكن هذا هو المظهر الوحيد لصراع هذه التيارات داخل الحزب الوليد فهناك أيضا الصراع بين محمد حسين هيكل (الليبرالى ذو الميول الرأسمالية) وعزيز ميرهم (الاشتراكى الراديكالى).

يقول شفيق غربال «نشأ الحزب الديمقراطى فى جو النشاط السياسى الذى بعثته الثورة المصرية.. والطريف أن عزيز ميرهم عمل على أن يوجه الحزب نحو الاشتراكية بينما عمل هيكل على توجيهه نحو الفردية واختلف الرجلان اختلافا كاد أن يفضى إلى حل الحزب وهنا تدخل بينهما الشيخ مصطفى عبدالرازق بطريقته الجذابة، وأكاد أراه وهو يحكم بينهما، وأكاد أسمع صوته وهو يسأل هيكل «أفأنت تضن على الفقراء بحقهم فى التعليم والتداوى والعيش عيشا إنسانيا؟ وأجاب هيكل بطبيعته الحال: لا.. ثم سأل ميرهم وهل أنت تريد إلغاء الملكية الخاصة فى مصر حالا فقال عزيز ميرهم لا.. قال مصطفى أمامكما إذا ميدان فسيح مشترك تستطيعان العمل فيه متفقين فإذا جاء اليوم الذى لا مفر فيه من اختلافكما ولا أحسبه يجىء قبل سنوات طويلة نظرنا جميعا فى الأمر وفصلنا فيه بما يقضى به الحال حينئذ»[١٨].

وبهذه البساطة أمكن للطرفين أن يتفقا وكان ثمرة الاتفاق برنامج أقرته الجمعية العمومية للحزب بجلستها المنعقدة فى ١٩١٩/٩/١٠ تحت اسم «قانون الحزب» وقد جاء هذا البرنامج خاليا تماما من أية إشارة إلى الاشتراكية لكنه يؤكد فى مقدمته أن «مبادىء هذا الحزب تقوم على أساس المساواة بين الأمم والإخاء بين الأفراد والنهوض إلى أسمى ما يتصور من الرقى وتأييد «سيادة الشعب وإقامة العدل مقام القوة».

وجاءت المادة الثالثة من قانون الحزب لتحدد عشرة أهداف تمهد الحزب بالنضال من أجلها.

والأهداف العشرة تعبر عن سيطرة الفكر الليبرالى مثل:

- تفويض الشعب سلطته إلى هيئة نيابية تنتخب على أكمل طريقة تمثله تمثيلا صحيحا، ويكون من اختصاصها التشريع وفرض الضرائب ومحاسبة الحكومة المسئولة أمامها على أعمالها.

- توحيد التشريع فى حدود مصر وتعميم تطبيقه على من يسكن البلاد[١٩].
- الاعتراف بحق كل شعب فى حكم نفسه.

أما ما يمكن تسميته بالأفكار الاشتراكية فقد ترددت على استحياء بعبارات مطاطة مثل:

ترقية الطبقات العاملة أدبيا وماديا وإعانة من لا يستطيع العمل[٢٠].

ويحاول عزيز ميرهم أن يضع تفسيره الخاص لبرنامج الحزب فيقول «إن الحزب لم يأخذ بالنظرية المصطلح عليها بين كثير من علماء القانون الدستورى والقانون العام، فى اعتباره الديمقراطية سياسية فحسب.. بل عدها سياسية واقتصادية واجتماعية وخلقية معا.. ولن يكون بلدا ديمقراطيا حقا إلا إذا حقق - إلى جانب نواحى الديمقراطية فى النظم السياسية - النواحى الديمقراطية الأخرى فى ميادين الاقتصاد والاجتماع والأخلاق، وعلى هذا الأساس لا نعد البلاد الكبيرة فى القارة الأوروبية - فيما عدا بلاد السوفييت - بلادا ديمقراطية بالمعنى الصحيح الصادق الكامل؛ لأن الشطر الأكبر من ثروة هذه البلاد يستأثر به نفر ضئيل من الأهلين، بينما المنتجون الحقيقيون لهذه الثروة - وهم السواد الأعظم من السكان - محرومون من كد أيديهم وثمرات أذهانهم»[٢١].

لكنه مجرد تفسير شخصى..

كما إن الحزب - كما قال محمد عزمى - قد اهتم بحركة العمال «وكانت لا تزال بادية فى الأفق فتلقاها برعايته وأشرف بعض الشىء على نقاباتها وتأليفها وشكاوى العمال والدفاع عنها»[٢٢].

لكن هذا الحلف الذى تجمع سريعا ما لبث أن تفرق سريعا أيضا.. اتجه البعض إلى اليمين وربما اليمين المتطرف (الأحرار الدستوريين).. واتجه البعض الآخر إلى اليسار وربما اليسار المتطرف.

لكن ذلك لا ينهى الحديث عن هذا الحزب، ولا عن تلك القوى التى تجمعت فى داخله، فثمة أشخاص يتعين على الدارس أن يتتبع مواقفهم عبر الفترة التالية كى يمكن أن نفهم حقيقة الدوافع والأفكار التى حركتهم.

ومن بين هؤلاء ثلاثة سأكتفى بالحديث عنهم فى عجالة:

هيكل.. عزمى.. ميرهم..

فكل منهم يمثل جانبا من الصورة:

هيكل: ليبرالى من أسرة إقطاعية يؤمن بالحرية ويكره الاشتراكية.

عزمى: مثقف يلعب على الحبال ويتأرجح بين الاشتراكية عندما تقوى وبين خدمة الإقطاع والسير فى ركابه عندما تضعف وينتهى به الأمر إلى خدمة الخديو المخلوع.

ميرهم: أرستقراطى يؤمن بالاشتراكية إيمانا راديكاليا، لكنه مجرد إيمان عقلى لا يدفعه إلى اتخاذ أية خطوة إيجابية وينتهى به الأمر عضوا فى مجلس الشيوخ، وأحد وسائل الوفد لإخضاع الحركة العمالية لنفوذ البرجوازية.

هذا الحلف الذى تجمع فى الحزب الديمقراطى يستحق التأمل.. وموافقة المستقبلية تستحق الدراسة..

فهيكل.. الذى كان يظن أن قضية الاشتراكية لن تطرح إلا بعد سنوات طويلة، والذى أقنعه الشيخ مصطفى عبد الرازق بأن أمامه ميدان فسيح للعمل مع الاشتراكيين، لم تلبث أحداث الصراع الطبقى العنيق الذى فجره إعلان تكوين الحزب الاشتراكى المصرى أن تدفعه إلى أن يفصم عرى هذا الحلف، ويعلن فى صراحة معارضته لتأسيس الحزب الاشتراكى، فينشر فى الأهرام مقالا بعنوان «الاشتراكية فى مصر» جاء فيه[٢٣]:

«أريد آن أسأل إخواننا الاشتراكيين: هل ترون البيئة المصرية الحاضرة صالحة لقيام مبدئكم فيها أم أنها على عكس من ذلك معادية له، فمحاولة إدخاله إليها - فضلا عن أنها عبث غير منتج - قد يكون من ورائها ارتباك يجعل بهم ألا يجروا البلاد إليه.. لا شك أن إخواننا يعلمون عن يقين أن من أقوى ردود الفرديين على الاشتراكيين أن نظريتهم إذا صحت فى الصناعة فهى لا تصلح فى الزراعة، لأن الناس فيها مبعثرون ليست بينهم جامعة ضرورية كعمال الصناعة، ولأن الملكية الصغيرة لا تزال منتشرة جد الانتشار فى النظام الزراعى.. ألا يصح أن نسائل إخواننا الاشتراكيين المصريين عن مبلغ تطور نضال الطبقات فى مصر والى أى حد وصل؟ وهل لامست فكرة النضال نفس العمال واستفزتها إلى حد تمكن الإحساس بها من فؤادهم؟ وإذا صح أن كان لذلك شبه وجوده فى بعض الصناعات فهل هو موجود فى الصناعات الأخرى؟ وهل يمكن أن يكون موجودا فى الأرياف؟.. فإذا قدر لحزبنا الاشتراكى أن يتولى الحكومة أول ما يتم لمصر الاستقلال أفتراه يقتصر على ترك الفلاحين كما هم، أم هو يعمد إلى إلغاء الملكية حتى الصغيرة منها؟

إننى أشارك إخواننا الاشتراكيين فيما يرمون إليه من ضرورة إصلاح الطبقات الفقيرة ووضع قوانين لضمان المعيشة وما إلى ذلك من النظم، ولكن شتان بين هذا وبين الاشتراكية.. وإن هذا كله ممكن التحقيق والملكية الفردية قائمة، ولن تكون اشتراكية إلا إذا ألغيت الملكية الفردية.. فأما إذا رأى إخواننا الاكتفاء بهذا والسعى له، حتى إذا تم كان لنا أن ننظر فى النظام الذى يجىء بعده مستلهمين الرأى من تاريخ تطور مصر الاقتصادى فهم طلاب إصلاح اجتماعى لا اشتراكية.. وأما إن كانوا يرون البيئة صالحة لنشر الاشتراكية.. فليتفضلوا بإفهامنا هذا على طريقة علمية دقيقة.. وقد يمكن بعد الأخذ والرد أن نتفاهم وإياهم فما نريد إلا مصلحة البلاد».

إنها محاولة ماكرة جديدة لإعادة تكبيل الاشتراكيين فى إسار حزب كالحزب الديمقراطى.. وعندما تفشل المحاولة، يبرز هيكل قطبا من أقطاب حزب الإقطاع (الأحرار الدستوريين).. وإن كان قد ظل لوقت طويل يردد أفكارا ذات صبغة ليبرالية، لم تنس فى أية لحظة عدائها للاشتراكية وللبلشفية وفتحت صدرها لأى هجوم عليها.. ولنتابع سريعا بعض أعداد السياسة..

مقال بعنوان «تولستوى والثورة البلشفية»[٢٤] والمقال فى جوهره هجوم على البلشفية واتهام لها بأنها تنشر الحقد والإرهاب..

وفى رسالة من باريس حول احتفالات أول مايو هناك، تقول السياسة «كان الحزب الشيوعى قد أغرق باريس فى عيد العمل بمنشوراته وغطى جوانب جدرانها بإعلاناته، فتساءلت «الايكودى بارى» من أين له هذه النقود؟.. إن أحدا ليس من البساطة بحيث يعتقد أنها من جيوب العمال.. إن الحزب الشيوعى له مصادر خاصة فوق العادة، ونحن من الشجاعة بحيث نقول: إن مصادره هذه فى الخارج.. فهو وكيل أكبر مشروع مخيف للخيانة وضع ضد بلادنا المسكينة»[٢٥].

وفى عدد آخر تقول السياسة بعنوان «سلام العالم» «لاريب أن غاية غايات السياسة الروسية هى إحداث ثورة عالمية لنشر المبادئ الشيوعية وأقطاب السياسة الروسية يبذلون جهود الجبابرة لتحقيق هذه الفكرة. بل هم يستحلون الحرب ويفضلونها على السلام لتحقيق فكرتهم هذه.. وقد أدركت أوروبا هذه الحقيقة فصارت تعتمد على قواها المسلحة أكثر من اعتمادها على المعاهدات»[٢٦].

وفى عدد آخر مقالين الأول بعنوان «القضية التركستانية، تعاضد الشعوب الروسية فى محاربة البلشفية» والثانى بعنوان «المشانق فى بلاد البلاشفة.. إمعان زعماء السوفييت فى حكم الإرهاب»[٢٧].

وتصف «نصر الله إسماعيلوف» بأنه رئيس الشناقين البلشفيين[٢٨].

وهكذا سلسلة لا تنتهى من الهجوم المستمر والمتعدد الجوانب فى كل عدد من أعداد السياسة..

وإذا كنت سأتحدث تفصيلا فى فصل قادم عن الحملة المعادية للبلشفية، إلا أننى فضلت أن أشير هنا إلى قليل من هذا الكثير فى محاولة لإعطاء الصورة أبعادها الحقيقية..

وإذا كانت هذه الكلمات كافية لتحديد حقيقة الاتجاهات والآراء التى دافع عنها هيكل، فأنها تصلح أيضا - وبنفس الدرجة - لتحديد طبيعة موقف هؤلاء الذين تعاونوا معه فى إصدار «السياسة» مثل محمود عزمى ومحمد عبدالله عنان.

أما محمود عزمى فهو مثقف يعلن اشتراكيته أحيانا ويخفيها أحيانا كثيرة، وقد كان متزوجا من روسية بيضاء لها ابن عم بلشفى معروف.. فكان يستغل الموقف على الوجهين أيضا.

ومحمود عزمى انتقل من الحزب الديمقراطى إلى الحزب الاشتراكى، لكن عزمى ظل طوال حياته يؤكد أنه ضد البلشفية.. وقد أقام محمود عزمى فى العشرينيات علاقات مع بعض الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية فى أوروبا، وفى عام ١٩٣٠ كون مع عدد من المصريين المقيمين بأوروبا «لجنة تابعة لجماعة حقوق الإنسان».. وهو يفاخر بأن الاتحاد الدولى لحقوق الإنسان قد أعلن «عداءه لكل نظام ديكتاتورى يمينى أو يسارى، فاشى أو بلشفى»[٢٩].

وهو مرة أخرى يفاخر بأنه «مسجل عند الشيوعيين فى عداد الرجعيين، لأنى مثقف من ناحية والمثقفون فى عمومهم خصوم لذلك النظام الأحمر، ولأن لى مقالات ضد «الشيوعية»[٣٠].

وعقب بدء الحملة على الشيوعيين عمل عزمى فى جريدة «السياسة» جريدة حزب الأحرار الدستوريين[٣١].

وعلى صفحات السياسة تحدث محمود عزمى كثيرا عن الحرية وعن الديمقراطية وعن حقوق الإنسان، لكنه يسخر قلمه فى الهجوم على الاتحاد السوفيتى والبلشفية والأحزاب الشيوعية فى أى مكان ابتداء من الصين إلى فرنسا.. إلى النمسا.

فهو يتحدث عن أحداث الحرب الأهلية فى الصين، مؤكدا «أن الشيوعيين الصينيين كانوا يتلقون التعليمات والأسلحة والأموال من الملحق العسكرى السوفيتى»[٣٢].

وتحت عنوان «فرنسا والشيوعية» يتحدث عزمى عن «الحملة الصادقة» التى شنها ميلران عندما كان رئيسا للوزراء على جماعة الاتحاد العام للعمل، والتى وصلت إلى حد إغلاق دار هذه الجماعة إغلاقا.. وهو يتحدث فى ارتياح عن الهجمات التى شنها «مسيو سارو» على الشيوعية، وعن دوره الحازم القاسى فى استجواب كاشان بشأنها..[٣٣].

ثم هو يتحدث عن مظاهرات نظمها الشيوعيون والاشتراكيون فى فيينا. ويقول «وأهم ما نذكره خلال ذلك كله إنما هو الموقف العظيم الذى وقفه رئيس الحكومة النمساوية القس «زيبل».. فقد قامت قيامة الشعب فى فيينا وكثر أعضاء بلديتها من الاشتراكيين والشيوعيين، واضطر الجيش أن يطلق رصاصه دفاعا عن نفسه ثم حفظا للنظام، وقتل فى خلال ذلك خلق كثير.. وتقدم الاشتراكيون ومن إليهم إلى رئيس الحكومة بمطالب يلحون فى تحقيقها، وكان فى أولها استقالة الوزارة أو إدخال تعديل فيها بحيث ينخرط فى سلكها ثلاثة من نوابهم.. لكن رئيس الحكومة أظهر من الشجاعة ما أعجب من أجله العالم كله، فوقف فى وجه المشاغبين وقفة عظيمة مجيدة وأبى أن يذعن لأى من هذه المطالب، إلا أن تقف الثورة ويعود العمال جميعا إلى العمل وتستأنف الحياة العادية، ورفض بخاصة أن يعترف لأولئك الاشتراكيين بأية صفة، ورفض أن يحسب نفسه مسئولا إلا أمام البرلمان وأمامه مجتمعا فى جلسته لا أمام أفراد النواب.. بل ذهب إلى حد الامتناع عن دعوة المجلس النيابى إلى الانعقاد قبل أن تهدأ الحالة تماما.. وسرعان ما تقهقر الشيوعيون والاشتراكيون أمام هذا الخلق المتين..».

ولا يكتفى عزمى بذلك بل هو يؤكد أن موقف حكومة النمسا هو «مثل يجب أن يحتذى إزاء كل خروج على النظام»[٣٤].

هكذا ينتهى الرجل تماما.. فهو يهاجم الشيوعيين والاشتراكيين على السواء، وإضرابات العمال خروجًا على النظام، وتعنت الحاكم ورفضه الخضوع لإرادة الشعب ورفضه عقد الجلسات للبرلمان خلق متين وموقف شجاع.

إن عزمى قد تدهور سريعا..

وهو يواصل رحلته إلى مداها.. فيعمل لحساب الخديو المعزول لعدة سنوات «سنوات كنت أعمل خلالها إلى جانب الخديو بأوروبا بمرتب شهرى قدره مائة جنيه تضاف إليه مصاريف الإقامة فى غير باريس تجعله قريبا من المائة والخمسين»[٣٥].

وهو مبلغ مغر بغير شك..

وإذا كان محمود عزمى قد انتهى هذه النهاية.. فإن مصير عزيز ميرهم يستحق التأمل أيضا.. وميرهم رجل يتميز براديكاليته.. يقول الفكرة ناضجة محددة واضحة وحاسمة، لكنه يكتفى بالفكرة ولا يرهق نفسه فى التنفيذ.. إنه يفكر للاشتراكية لكنه لا يحب أن يعمل من أجلها ولا أن يضحى فى سبيلها..

لكنه مع ذلك رجل يقول ما يريد بشجاعة، وتستهويه التعبيرات الحاسمة، ولا يقبل التحايل أو المناورة فى الأفكار..

وعندما اشتد الهجوم على الحزب الاشتراكى، وعندما بدأ سلامه موسى وغيره من قادة الحزب يتراجعون.. هاجمهم ميرهم هجوما شديدا معلنا أنهم قد خرجوا على الاشتراكية الحقة.. قال[٣٦]: «إنهم لم يتجاسروا على أن يتحملوا أمام الرأى العام المصرى مسئولية اعتناقهم المبادئ الاشتراكية كاملة.. وإنهم بذلوا جهدهم كى يبددوا التهم التى رماهم بها خصومهم من أنهم متطرفون خارجون عن الدين هادمون لنظم البلاد الاجتماعية لقوانينها الوضعية.. فتنصلوا جميعا من تهمة التطرف.. ويؤخذ من أقوالهم أن الاشتراكيين المصريين يقررون أن النظم الحالية نظم مرضية يحتفظون بها مع تغيير بسيط لا يمس جوهرها.. وهذا وجه ضعفهم..

أولا: لأنهم بذلك قرروا أن وجودهم وإن كان مستحسنا فهو غير ضرورى.

ثانيا: لأنهم بالغوا فى رضاهم عن الأنظمة الحاضرة حتى تهاونوا فى الإصلاحات التى ينشدها الاشتراكيون الأصمام، وكانت النتيجة أنهم اكتفوا بأن يأخذوا من الاشتراكية اسمها – والاسم فقط – دون مبادئها، وكانوا فى الواقع أول الهادمين لوجودهم.

ثم أدان ميرهم هجوم بعض قادة الحزب على البلشفية وقال: «وصل الاشتراكيون المصريون فى مجاراة الرأى العام أن أنكروا البلشفية وطعنوا فى مبادئها، مع أن البلشفية – أصابت أو أخطأت – هى على كل حال من الاشتراكية.. وإنى كنت أود ألا يكون إخواننا

الاشتراكيون «تفتازانيين» أكثر تفتازانية من التفتازانى(*) وألا يرموا البلشفية – رغم غلطاتها – بطعنات صدروا بها بياناتهم ولم يتثبتوا منها مبدئيا.

فإن البلشفية لم تحقق إخفاقا يكاد يكون تاما – كما يزعمون– ولم تنشر على ربوع البلاد الروسية ألوية الدمار والخراب كما يزعمون، إنما البلشفية ناهضة حية.. والبلشفيون عاملون على تعميم المدارس للمولودين وإنشاء حدائق للأطفال وملاجىء للشيوخ ومستشفيات للعموم.. وأصبح الغذاء عندهم مشاعات ومخازن البلديات تصرف للأفراد حاجاتهم، ويدفعون ثمنها من عملهم دون وساطة التجار وأصحاب المصارف، والشعب يختار نوابه وله حق إقالة من يفقد ثقته، والناس جميعا يعيشون عيشة عادية منظمة.. وأن ما يأخذه أعداء البلشفية برهانا على تخريبها للبلاد الروسية هو برهان فاسد، فالمجاعة راجعة إلى أسباب جوية طبيعية محضة.. إنى لا أقول بأن البلشفيين لم يرتكبوا أخطاءً فظيعة، ولكن هذا شأن القائمين بتحقيق الأنظمة الجديدة لا بالتطور بل بالقوة، أى باستعمال العنف والقلب الفجائى.. ولكنى أرى أنه من الفضيحة بالنسبة لهم، وبصفتهم اشتراكيين، أن يطعنوا على البلشفية ويفترون عليها لكراهيتهم لوسائلهما».

وهكذا فإن كان أعضاء الحزب من اشتراكيى الدولية الثانية والفابين قد أصبحوا «تفتزانيين» أكثر من «التفتازانى».. فإن ميرهم – وهو خارج الحزب وبالرغم من انتقاداته للبلشفية قد دافع عنها بحيث بدأ وكأنه بلشفى أكثر من البلاشفة..

وفى مجال آخر يقدم ميرهم أفكارا جريئة.. فهو يوجه رسالة إلى صاحبة جريدة الأمل بعنوان «الثائرة» يقول فيها:(٣٧)

«الجمهور يتابع ثورته التى لم تتحقق أغراضها بعد».

ويتحدث عن الثورة فيقول «ليست الثورة فى أعمال الهدم والتخريب ولا فى إراقة الدماء والقضاء على الأنفس، وإنما الثورة فى قلب القديم الفاسد المنحل وفى الإنشاء والتجديد.. فهى دليل الصحة، دليل القوة، دليل الحياة».

ويقول «بالطبع إننا نستحسن عدم الثورة، ونستحسن الأخذ بنواحى الإصلاح عن طريق التدرج والتطور.. ولكن ما العمل إذا كانت هناك مقاومة؟ ما العمل إذا كانت هناك عناصر قوية رجعية تؤخر الجماعة دون أن تسير بها حسب السنن الطبيعية للتقدم العالمى؟ ما العمل إذا تفشى الفساد فى البلاد بدرجة تجعل النفوس تيأس من كل إصلاح تدريجى، فتوقن أن الهدم أسرع طريق للبناء من مجرد المعالجة».

«إن الشعب ثائر لا محالة، ثوران القوى المعتز بحقه، ثوران الصحيح الحريص على صحته، ثوران كل كائن يريد الحياة فيقاوم عوامل المرض والعناء».

وهو فى مقال آخر يعلق فيه على برنامج جريدة الامل.. يقول «إنه من أنصار التجديد الحاسم، من أنصار معالجة أمور الجماعة باستئصال الداء منها لا باستعمال المخدر أو الملطف من الأدواء»[٣٨].

لكنها مجرد كلمات جميلة وثائرة.. فصاحب هذه الكلمات لم يسهم بأى عمل سوى هذه الكلمات الجيدة.. وفى عام ١٩٢٩ نجد اسمه ضمن أعضاء مجلس الشيوخ.

وفى عام ١٩٣٠ يحاول أن يخضع الطبقة العاملة لقيادة الوفد.. وفى عام ١٩٤١ يلقى محاضرات فى الجامعة الأمريكية.. يقول فيها: إن «الاشتراكية السمحاء بعيدة عن حرب الطبقات وعن الطفرة والعدوان ومصادرة الأموال».

ويتحدث عن العلاقة بين العمال وأصحاب الأعمال فيقول أنها «بدأت تتجه نحو الصفاء والشعور بضرورة التعاون لمصلحة الإنتاج العامة وللمصلحة الخاصة للعمال وأصحاب الأعمال جميعا، وترفع الولايات المتحدة الأمريكية لواء الزعامة فى نشر هذه الآراء الحديثة»[٣٩].

لكنه مع ذلك يقرر فى نفس المحاضرة «إن البلد المخلص فى مبادئه، العظيم فى اقتصاده، هو الاتحاد السوفيتى.. وهو محط الأنظار لجميع الأحرار، والموئل الذى تلجأ إليه الديمقراطية الصادقة»[٤٠].

لكننى أستطيع أن أقرر أن عزيز ميرهم رغم كلماته الحاسمة والواضحة، ورغم أنه اكتفى بمجرد الكلمات، قد مر فى تاريخ الفكر المصرى مروراً عابراً دون أن يترك أثراً يذكر.. وربما كان ذلك لأنه اكتفى بمجرد الكلمات.

والحقيقة أن الانهيار السريع- والذى يشبه إلى حد كبير حالة الوفاة بالسكتة القلبية- الذى أصاب الحزب الديمقراطى.. لم يكن سوى تعبيرا عن عجز أفكار الدولية الثانية عن أن تنبت فى مصر نباتا أصيلا.. ولسوف نرى أن انهيار التحالف الذى كونه الحزب الاشتراكى كان أيضا تعبيرا عن نفس الظاهرة.

وقائمة اشتراكى الدولية الثانية كثيرة.

الدكتور على العنانى أستاذ الفلسفة وهو أحد الأربعة الذين وقعوا بيان تأسيس الحزب الاشتراكى، يعلن أنه «يمقتها كل المقت» وأنها تتنافر «مع طبيعة الوئام الإنساني العام».. وهو يعلن أن اشتراكيته هى الاشتراكية العملية العملية المعتدلة[٤١].

وهناك حسنى العرابى أحد الأربعة المؤسسين أيضا.. فهو بالرغم من أنه تزعم فيما بعد عملية تحويل الحزب إلى حزب شيوعى ينتمى للدولية الثالثة، إلا أنه يتعين علينا أن نذكر أنه قد ترجم فى مطلع العشرينات كتاب «الحركة الاشتراكية» لرامزى ماكدونالد.. وقدمه للقارىء المصرى قائلا: إنه رئيس الحكومة الإنجليزية وزعيم «الدولية الثانية».

وقد اكتفى العرابى بالترجمة ولم يكتب أى تعليق أو مقدمة، لكن مجرد ترجمة كتاب كهذا تمثل بالنسبة لنا دلالة مهمة.

ولست أريد أن أستعرض هذا الكتاب، لكننى سأكتفى بإشارة واحدة.. ففى الكتاب الذى ترجمه حسنى العرابى سكرتير الحزب فصل بعنوان «ما ليس من الاشتراكية».. وتحت هذا العنوان كلمتان الفوضوية والشيوعية»[٤٢].

أما رابع الأربعة المؤسسين للحزب الاشتراكى فهو «محمد عبد الله عنان»..

ومحمد عبد الله عنان «نموذج كلاسيكى لمدرسة الدولية الثانية»..

وعنان واحد من الذين سارعوا إلى التراجع تحت وطأة للهجوم المحموم الذى شنته الرجعية على الحزب.. فهو ينشر مقالا بعنوان «الاشتراكية المصرية لا تدعو إلى ثورة أو فوضى» [٤٣].

وأشاد.. فى هذا المقال بمقالى «الوفيق» سلامة موسى و«الرفيق» على العنانى.. وتحدث عن الفروق بين الشيوعية والاشتراكية فقال: «أما اقتران الاشتراكية بالفوضى والشيوعية فهو خطأ جسيم، لأن الشيوعية تقوم على اعتبار الثروة كتلة عامة يستمد منها المستهلك حاجته، لا بالنسبة إلى خدماته ولكن وفقا لحقوقه الطبيعية فى أن تسد حاجاته.. أما الاشتراكية فإنها تعلق المنح على قوة الإنتاج وقيمة الخدمات، فكلا المبدأين ينفقا فى توحيد الثروة ولكنهما يختلفان فى تحديد حقوق الفرد بالنسبة إليها، لأن الاشتراكية تقرر التوزيع طبقا للكفاءة الشخصية، والشيوعية تقرره طبقا للحاجة البشرية. إن القول على إطلاقه بأن الاشتراكية ترمى إلى محو الملكية الشخصية خطأ شديد كخطأ قرنها بالفوضى، فالاشتراكية لا تريد إلا القضاء على النتائج السيئة التى تؤدى إليها الملكية الشخصية بشكلها الحاضر وتحقيق أنظمتها العادلة المستطاعة.

إن الاشتراكية لا تحتم إلغاء الوراثة ولا تعترض عليها إلا حيث تفضى إلى دفع السواد الأعظم.. وبالجملة فإن برنامج الاشتراكية الاقتصادى يومىء إلى تحطيم نظم الاستثمار والاستغلال بتحديد حق الملكية الشخصية.. أما المساواة فى الاشتراكية فليست مساواة فى الحالة الاجتماعية مطلقا، وما هى إلا مساواة فى «الفرص» فيبدأ الطفل حياته وجميع الأبواب مفتوحة فى وجهه، فلا يغلق ثمة منها فى وجهه ما يستطيع ولوجه. إن استبداد رأس المال هنا شائن بالغ حد الإرهاق، وإن استئثار طائفة برأس المال هنا يقترن به طغيان فادح يوضحه لك عنف أصحاب الضياع بالفلاح البائس التعس».

إلى هنا والكلمات لا غبار عليها فهى قد تكون مقبولة- إلى حد ما- من كلا الطرفين الاشتراكيين والشيوعيين..

لكن الصدام الحقيقى يبدأعندما يقود عنان الحملة ضد الاتجاه الذى تزعمه حسنى العرابى ومارون وصفوان أبو الفتح بضرورة الانضمام للدولية الثالثة..

وانفصل محمد عبد الله عنان عن الحزب معلنا اعتراضه..

انفصل ليعمل هو أيضا فى رحاب «الأحرار الدستوريين» فى مجلة «السياسة» ومجلة السياسة ليست بحاجة إلى مزيد من الإيضاح.. لكن المهم أن محمد عبد الله عنان واصل الكتابة فأصدر سلسلة من الكتب شرح فيها آراءه فى الاشتراكية.. والشيوعية..

والحقيقة أن عنان قد حيرنى كثيرا فهو فى أحيان يمجد البلاشفة والماركسيين، وفى أحيان أخرى -بل وبعد صفحات قليلة- يهاجمهم. ولنتأمل أحد كتبه «تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة»(*).

فهو يتحدث عن ماركس قائلا: إنه « رجل من أئمة الثورة وأقطاب الهدم(**) وهو من أعظم دعاة الشيوعية بل هو موضح أصولها العلمية ومنظم أساليبها الثورية»(٤٤).

وقد أفهم ماركس وانجلز العالم أن الاشتراكية ليست عطفا على بؤساء المجتمع من ذوى الأفئدة الرقيقة والطبائع البارزة بل هى بالعكس انقلاب اجتماعى هائل وأنه لا خلاص للعمال ولا فوز إلا بصراع هائل ينشب بينهم وبين الطبقات الحاكمة المستأثرة بالثروة والسيادة وكانت آراء ماركس وانجلز المنطقية ضربة ساحقة للمثالية والطوباوية فقويت الاشتراكية واشتد ساعدها حتى أصبحت صراعا ماديا واضحا بين الطبقات وارتفع ما حاق بها من الغموض وأصبحت قضية يدركها الفرد العادى.. فشعر العامل

بقوة التضامن مع رفاقه من كل البلاد ودوت فى أذنه صرخة ماركس وانجلز «ياعمال العالم اتحدوا»[٤٥].

ويعد أن شرح شرحا مستفيضا نظرية ماركس ولخص تلخيصا وافيا «البيان الشيوعى» ينتقل ليقول «كلمة موجزة عن الرجل الذى استطاع بعزمه الفياض وذكائه الخارق أن يجعل مثل ماركس حقيقة واقعة وأن يقيم بمؤزارة زملائه أول جمهورية اشتراكية فى التاريخ.. ذلك الرجل هو لينين، أعظم تلاميذ المدرسة الماركسية وأعظم دعاة الثورة العالمية، ومنشئ الدولية الشيوعية الثالثة وأول رئيس لجمهورية روسيا الاشتراكية[٤٦].

«وقد ظهرت مواهب هذا الرجل العبقرى رائعة خارقة فقد استطاع فى غمار هائلة من الصعب والخطوب أن يسير دفة المجتمع الجديد، الفذ فى نظمه وغاياته بمهارة مدهشة واستطاع أن يرعى الثورة الفتية.. ولم يمض عام حتى كانت الجمهورية الجديدة قد اجتازت أشواطا فى سبيل النظام والاستقرار»[٤٧].

وبعد مديح طويل للينين والبلاشفة وللاتحاد السوفيتى.. يعود عنان ليتخذ الموقف النقيض ويبدأ الهجوم بعد صفحتين فقط..

«الدولية الشيوعية قوة خفية.. فكرة يحملها جيش هائل من الدعاة يجتاحون أرجاء العالم، تشهد أعمالهم ولا تراهم، وتهيمن أشباحهم المظلمة فى أفق كل اضطرابات وثورة ويهرع إلى لوائهم كل ناقم وبائس ومغامر.. هذه هى الدولية الشيوعية التى تقبض موسكو على ناصيتها ويسيرها خلفاء لينين وتلاميذه»[٤٨].

ويقول «ولكن الدولية لا تستطيع رغم جهودها أن تقنع السواد باعتناق أهدافها الخلابة ومثل روسيا قائم يشهد بأن التجربة الشيوعية كانت خيبة، وأن تعاليم ماركس ما زالت حلما وحشيا لم تحقق منه إلا لمحات ضئيلة»[٤٩].

كل هذا التناقض فى كتاب واحد.. بل وفى صفحات متقاربة.. ولعله يفسر فى ذاته ذلك الاضطراب والخلط والتناقض الذى يقع فيه واحد من اشتراكيى الدولية الثانية عندما يحتمى من موجة العداء للاشتراكية فى رحاب حزب الإقطاع.. وثمة مثقفون آخرون غير هؤلاء كانوا هم أيضا أصداء مصرية لفكر الدولية الثانية ومن هؤلاء حسين نامق(*).

وحسين نامق يقول عن نفسه وعلى غلاف كتابة أنه خريج جامعة أكسفورد، والكتاب عبارة عن أسئلة وأجوبة حول الاقتصاد السياسى.. وفى الكتاب فصل عن الاشتراكية.. ولنتأمل الأسئلة.. والأجوبة(**).

س: ما هى الاشتراكية؟

جـ - هى التعاون الإجبارى فى الإنتاج.

س: ما المراد بالتعاون الإجبارى؟

جـ - أن يكون منظما وتحت إشراف الحكومة.

س: فيم يكون التعاون الإجبارى؟

جـ : فى جميع المرافق الإنتاجية كالسكك الحديدية والتلغراف والتليفون والبريد والطرق الزراعية والمعامل والمصانع والحقول وغيرها.

س: ما نوع الحكومة التى يكون تحت إشرافها التعاون الإجبارى؟

جـ - يجب أن تكون حكوة ديمقراطية لا مركزية بمعنى أن يعطى الحكم الذاتى لكل إقليم ولكل بلد ولكل قرية.. حتى يتسنى لجميع الأفراد الاشتراك فى إدارة شئون أمتهم.

ثم أسئلة أخرى أكثر صراحة..

س: ما رأى الاشتراكيين فى الملكية؟

جـ: يرون أن يقضى على التملك الفردى لتصبح الأرض وما عليها مشاعة بين الناس ينتفعون بها على السواء والملكية فى نظرهم هى السرقة والاختلاس.

س: ما رأى الاشتراكيين فى رأس المال؟

جـ : يرون جعل رؤوس الأموال مشتركة بين جميع الناس حتى يصبح كل أفراد الأمة ممولا فى هذا المال المشترك.

س: ما رأى الاشتراكيين فى المرء العاطل؟

جـ: العاطل غنيا كان أو فقيرا لص؛ لأنه أخذ من مال الأمة ولا يبذل لصالحها..

وتتوالى أسئلة وأجوبة أخرى كثيرة أهم ما يلفت النظر فيها أنه يقول: إن «أتباع كارل ماركس يسمون بالاشتراكيين الفنيين»(٥٠).

وإن من حسنات الاشتراكية أنها تنادى بنشر التعليم المجانى وبإبطال الحروب وبمنع الخمر..

وإن من مزايا الاشتراكية أنها «حركت فينا عواطف الشفقة والمحبة نحو الطبقة الفقيرة وأنها غير راضية عن الحكومات الاستبدادية وأنها لا تنافى الديانات الحقة..»[٥١].

ولكن أخطر ما يقوله نامق فى كتابه هو تأكيده أن الاشتراكية يمكن أن تنشأ فى ظل النظام الاجتماعى والدستورى الحالى نافيا أن الاشتراكية تسعى لتغيير هذا النظام.. فهو يسأل «هل الاشتراكية مشتقة من النظام الدستورى الحالى؟ والجواب نعم، وبيان ذلك أن كثيرا من الحكومات الآن تملك أو تدير أغلب المرافق الإنتاجية، والاشتراكية تنادى بجعل هذه المرافق تحت إشراف الحكومة ولكن على نطاق أوسع وأهم مما هى الآن..[٥٢].

ولا ينسى المؤلف بطبيعة الحال أن يدعو لحزبه.. فثمة سؤال «هل ظهرت الاشتراكية فى مصر؟..» والجواب «نعم نهض نفر من إخوان العمل فى مصر وألفوا حزبا يسمى بالحزب الاشتراكى المصرى..».

وسؤال آخر.. «هل لهذا الحزب مبادئ معلومة؟.. نعم له مبادئ تنقسم إلى ثلاثة أقسام وهى سياسية واقتصادية واجتماعية[٥٣].

ثم يستطرد فيورد تقريبا النص الكامل لبرنامج الحزب.

وإذا كانت أفكار حسين نامق هى نموذج لتأثر الطلب المصرى فى جامعة أكسفورد بأفكار حزب العمال البريطانى فثمة طلاب آخرون تأثروا بالأحزاب الاشتراكية الأوربية الأخرى.. البعض بالحزب الألمانى مثل عصام ناصف، عبد الفتاح القاضى وآخرون.. والبعض بالتيارات الاشتراكية فى فرنسا وهؤلاء هم أعضاء الجمعية المصرية فى باريس..

والجمعية المصرية فى باريس تكونت فى الأساس كتجمع لشباب الحزب الوطنى هناك يستهدف تعبئة الجهود المصرية فى الدعاية للقضية الوطنية أمام مؤتمر الصلح، لكن هذه الجمعية سرعان ما اتخذت اتجاها يساريا..

فمؤسسا الجمعية خليفة بوبلى وعبده جوده كانا عضوين فى الجناح اليسارى لحزب حقوق الإنسان بفرنسا شعبة الحى الخامس بباريس وقد استطاعا أن يقيما علاقة وثيقة بين الاشتراكيين الفرنسيين وبين هذه الجمعية..

فأقنعا «لوسيان باركسيو» رئيس شعبة الحى الخامس بالدفاع عن القضية المصرية فى مؤتمر الحزب»[٥٤].

كذلك أقامت الجمعية علاقة بالحزب الاشتراكى الفرنسى، وخاصة بزعيمه مارسيل كاشان، وقد قام كاشان بزيارة مقر الجمعية معربا عن تأييد حزبه للقضية المصرية واستعداده لمساعدتها بكل ما فى وسعه «ثم طلب من الأعضاء أن ينتدبوا أحدهم ليشرح للطلبة الاشتراكيين أصل المسألة ويفهمهم ما يغيب عنهم من تفاصيلها»(٥٥).

«وبالفعل أرسلت الجمعية ثلاثة من أعضائها إلى مؤتمر نظّمه الحزب الاشتراكى الفرنسى ليشرحوا تطورات القضية المصرية. وفى ختام الحفل هتف الاشتراكيون الفرنسيون «لتحيا مصر» ووقف المصريون والفرنسيون معا لينشدوا نشيد الدولية»(٥٦).

كذلك قام كاشان بتقديم عدد من ممثلى الجمعية إلى بعض مساعدى ويلسون فى مؤتمر الصلح.

«وعندما وصل سعد زغلول والوفد المصرى إلى باريس أقام الحزب الاشتراكى الفرنسى وحزب حقوق الإنسان حفل تكريم يرأسه مارسيل كاشان..»

وألقى مارسيل كاشان كلمة قال فيها «إذا كنتم قد طرقتم أبواب الاستعماريين فأقفلوها فى وجوهكم فإن الشعب الفرنسى يفتح لكم أبوابه»(٥٧).

وقد اهتمت الجمعية بإقامة علاقات بالحزب الاشتراكى الإيطالى وبكثير من القوى اليسارية فى أوروبا.

وإذا كانت ثورة ١٩١٩ قد اتخذت لنفسها راية وطنية هى رقعة خضراء وثلاثة نجوم رمزا للديانات الثلاث.. فإن الجمعية المصرية فى باريس اختارت علما أحمرا ذا ثلاثة نجوم.

ولأمد طويل ظل العلمان الأخضر والأحمر يرفرفان فى سماء مصر.

كذلك عندما وصل الوفد إلى باريس حاول أعضاء الجمعية إقناعه بأنه لاجدوى من أحزاب اليمين وأنه لا سبيل سوى التحالف مع الأحزاب اليسارية، ورفض سعد زغلول ذلك(٥٨).

وإذا كان الوفد يميل إلى البحث عن حل وفاقى، بينما تطالب الجمعية المصرية وهى فى الأساس تجمع لشباب الحزب الوطنى عندما يندفعون يسارا فينادون بضرورة اتخاذ موقف صارم وحاسم وهو «لا مفاوضة إلا بعد الجلاء التام».

فلابد أن يحدث صدام..

ويتزعم هذا الصدام شابان يساريان متأثران بالحزب الاشتراكى الألمانى هما مجد الدين حفنى ناصف وعصام الدين حفنى ناصف.

ويقول عصام أنه قال لسعد «إننا نسحب منك الثقة، فامتعض سعد قائلا: إنه يمثل الأمة كلها وليس حفنة من الطلبة»(٥٩).

كذلك يبدو أن الجمعية المصرية قد أزعجت الوفد لأنها بدأت تمد نشاطها إلى مصر وتؤسس لها فرعا بالقاهرة وتجمع التبرعات وتحرض الشعب على المقاومة ورفض التهادن ويبدو أنه عندما وقع الخلاف امتنع الوفد عن تمويل نشاط الجمعية فلجأت إلى جماهير الشعب المصرى التى تبرعت لها بسخاء..

وينزعج الوفد من ذلك كله ويرسل على ماهر من باريس رسالة سرية إلى عبدالرحمن فهمى تقول: «يظهر أن مسألة الجمعية المصرية قد اتسعت أخيرا وذلك لعطف البلاد فى أعضائها ومساعدتهم بالأموال وإيجاد لجنة لهم فى مصر.. وظاهر أن مثل هذه التصرفات لا تتفق مع وحدة العمل ووحدة الوجهة فإنهم مهما كان شعورهم عظيما يقعون فى الأغلاط كثيرا، ولا يؤمن عليهم من غير إشراف الوفد، ولذلك يكون الأولى أن يترك الأمر للوفد فهو يقدم لهم ما يلزمهم من النقود ويشرف على أعمالهم بوجه الإجمال..

وإنى من وقت وصولى كان همى ضم الجمعية للوفد حتى يعامل أعضاؤها كأبنائه ويساعدهم بكل ما يلزمهم إلا أنهم كانوا فى غاية العند وأشدهم عنادا هو مجد الدين أفندى ناصف، فلذلك أرى أنه إذا عاد ليخدم القضية فى مصر يكون أصلح للوفاق هنا»(٦٠).

لكن هذا الصدام لا يعنى أن سعد زغلول لم يكن يدرك أهمية الحركة اليسارية فى أوروبا أو أنه لم يحاول الاستعانة بها..

فسعد كان يحاول اللجوء إلى الحركة الاشتراكية ولكن بقدر محدد بحيث لا يسمح للإنجليز باتهامه باليسارية..

فهو يكتب مقالات فى الأومانيتيه وفى الديلى ميرالد..

كذلك قام الوفد فى ٩ نوفمبر ١٩١٩ بإرسال مذكرة إلى المؤتمر الاشتراكى الدولى تحدث فيها «عن مطالب مصر وما تنتظره من الاشتراكيين من العون والمساعدة.. وأخذ يبرهن على أن الإسلام يتفق مع روح الاشتراكية.. ثم أشار إلى روح التضامن التى بين

المزارع وصاحب الأرض وإلى مسألة الأوقاف الخيرية وقال: إن الرابطة الزوجية عندنا تعادل الرابطة الحرة التى يقول بها الاشتراكيون..

ومع المذكرة أربعة ملاحظات من التعليم والأنظمة السياسية والمالية العامة والمسألة الاقتصادية»[٦١].

وفى ٥ ديسمبر ١٩١٩ أرسل الوفد مندوبين رسميين عنه للإدلاء بأقوالهم أمام اللجنة المركزية لحزب حقوق الإنسان.. وكان مندوبوا الوفد أحمد لطفى السيد، مصطفى النحاس ومحمد على[٦٢].

وعقب المناقشة قررت اللجنة المركزية تأييد القضية المصرية وعقد سلسلة من المحاضرات لشرحها.

وفى ١١ ديسمبر نظم الحزب اجتماعا جماهيريا تحدث فيه واصف بطرس غالى وفى نهاية الاجتماع أعلن المجتمعون أنهم «يرسلون إلى الشعب المصرى سلامهم وأمانيهم.. ويرجون أن ينال هذا الشعب النبيل أمانيه الشرعية فى ظل السلام».

وفى ٤ أغسطس أرسل الوفد برقية إلى هندرسن رئيس المؤتمر الاشتراكى المنعقد بلوسرن وقد احتج الوفد فى برقيته على معاهدة الصلح طالبا باسم مصر عون المؤتمر الاشتراكى على الظلم القاسى الذى حاق بمصر»[٦٣].

كذلك قرر الوفد أن يقدم نوعا من المساعدة المادية لجريدة «الأومانتيه» فتبرع لها بمبلغ ١٥٠٠٠ فرنك لكن مجلس إدارة الجريدة رفض - من ناحية المبدأ - قبول هذا التبرع، فأرسله سعد زغلول إلى اكتتاب كان مفتوحا لتخليد ذكرى الزعيم الاشتراكى «جوريس»[٦٤].

لكن كل هذه العلاقات لم تكن أكثر من محاولة للاستفادة من اليسار دون أى ارتباط به.

وعندما أشارت الجازيت فى ١٩ مايو ١٩٢١ إلى أن سعد أدلى بتصريحات لجريدة الديلى هيرالد وألمحت إلى عطفه على مبادئ حزب العمال سارع إلى نفى ذلك قائلا: «أدهشنى ما قرأته فى صحيفتكم من ارتياحى لخطة الديلى هيرالد الاجتماعية.. ولكننى أقول لكم ولقرائكم: إنى لست ممن يهتمون بالمباحثات فى هذه الشئون الاجتماعية، وإنى لا أجهد نفسى فى أمر الكومونة أو البلشفية.. إذ ليست عندى أى فكرة عن هذه الوجهة»..

وفى الوقت الذى كان الوفد فى باريس يتلمس تأييد اليسار كان سعد يرسل سرا إلى عبدالرحمن فهمى مؤكدا «أن الوفد غير راض عن المنشورات التى تتضمن الانتصار للبلشفيك، فإن هذه المنشورات يستفيد منها أعداؤنا»[٦٥].

وهكذا فإذا كانت علاقات التيارات المختلفة باليسار الأوروبى وبحركة الدولية الثانية يمكن تفسيرها بمضامين سياسية أو اجتماعية، فإن علاقات الوفد المصرى بهذه الحركة كانت موقفا عمليا بحتا يستهدف الاستفادة من هذه القوى فحسب.

فسعد زغلول كان قد حسم الأمر أكثر من مرة معلنا أنه ضد الاشتراكية.

هوامش

(١) عبدالرحمن الرافعى - محمد فريد - ص٢٧٨

(2) Ouvree du Congres National Egyptien tenu a Bruexelles 1910. p.10.

(٣) المرجع السابق ص٧.

(٤) المرجع السابق - ص١٣.

(٥) المرجع السابق ص ٤٨٥.

(٦) المرجع السابق - ص ٣١.

(٧) المرجع السابق - ص٤٣.

(٨) عبدالرحمن الرافعى - مذكراتى - ص٢٥.

(٩) المرجع السابق.

(١٠) عبدالرحمن الرافعى - محمد فريد - المرجع السابق ص٢٦٦.

(١١) اللواء ١٩١١/٧/١.

(١٢) راجع رووف عباس المرجع السابق. ومحمد عبدالعظيم رمضان. تطور الحركة الوطنية فى مصر.

(١٣) راجع محضر النقاش مع عصام الدين حفنى ناصف حيث يقرر أنه كان عضوا فى الحزب الوطنى ثم اتجه يسارا بتأثير الفكر الاشتراكى الألمانى. راجع كذلك محمد أنيس - دراسات فى وثائق ثورة ٩١٩ حول الدور الثورى المتطرف الذى لعبه مجد الدين حفنى ناصف إلى لحد الذى دفع سعد زغلول إلى محاولة إبعاده عن باريس وإعادته إلى مصر لإضعاف تأثيره على جماهير الطلاب المصريين بأوروبا. ص٢٢٩ - ٢٥٣.

(١٤) توفيق دياب - اللمحات - المجموعة الأولى - ص١٠٢.

(١٥) مجلة اللغة العربية. المرجع السابق كلمة شفيق غربال فى تأبين الدكتور هيكل - ص٢١٢.

(١٦) المرجع السابق ص٢١٦.

(١٧) محمود عزمى خبايا سياسية ص٣٦.

(١٨) شفيق غربال - المرجع السابق - ص٢١٨.

(١٩) وهو مطلب هام يستهدف (أ) القضاء على امتيازات الأجانب فيما يتعلق بالتقاضى.
(ب) إحلال التشريع المدنى الموحد محل التشريع الدينى الذى يحكم الأحوال الشخصية.

(٢٠) راجع النص الكامل. مجلة الطليعة، عدد فبراير ١٩٦٥ ص ١٥.

(٢١) عزيز ميرهم - الديمقراطية - ص٣٨.

(٢٢) محمود عزمى - المرجع السابق - ص٤٢.

(٢٣) الأهرام ١٩٢١/٩/١٧.

(٢٤) السياسة الأسبوعية ١٩٢٧/٢/١٢.

(٢٥) ١٩٢٧/٥/٢١.
(٢٦) ١٩٢٧/٦/١٨.
(٢٧) ١٩٢٧/٦/٢٥.
(٢٨) ١٩٧٢/٨/٢٠.
(٢٩) محمود عزمى - خبايا سياسية - المرجع السابق ص٨٠.
(٣٠) المرجع السابق - ص٨٢.
(٣١) المرجع السابق - ص٧٠.
(٣٢) السياسة الأسبوعية ١٩٢٧/٥/١٤.
(٣٣) ١٩٢٧/٦/١١.
(٣٤) ١٩٢٧/٨/٢٧.
(٣٥) محمود عزمى - خبايا سياسية - المرجع السابق - ص١٢٦.
(٣٦) الأهرام - ١٩٢١/٩/٢٠.
(*) الشيخ التفتازانى هو أحد الذين شنوا حملات ضاربة ضد الاشتراكية وضد الحزب الاشتراكى فى ذلك الحين.
(٣٧) الأمل ١٩٢٥/١١/١٤.
(٣٨) عزيز ميرهم - الديمقراطية - المرجع السابق - ص٤١.
(٣٩) المرجع السابق - ص٥١.
(٤٠) المرجع السابق - ص٥٢.
(٤١) الأهرام ١٩٢١/٨/١٩. وفى وقت لاحق (١٩٣٠) نشر د.على العنانى مقالا فى مجلة كل شىء أكد فيه تمسكه بالفلسفة الهيجلية وأساسا لفكرة الأحادية Monoisem فيها ويربط بينها وبين فكرة التوحيد فى الإسلام.
(٤٢) رامز ماكدونال-الحركة الاشتراكية- ترجمة محمود حسنى العرابى -ص٨٧.
(٤٣) الأهرام ١٩٢١/٨/٢٥
(*) صدر فى ١٩٢٦ عن دار الهلال.
(**) يستخدم المؤلف كلمة الهدم كبديل لكلمة التغيير، وهو يقصد بالحركات الهدامة الحركات التى تستهدف تغيير نظم الحكم بالقوة بغض النظر عن تقويم أهدافها ذاتها.
(٤٤)ص ١٨٦.
(٤٥) ص١٨٩.
(٤٦) ص ٢٠٥.
(٤٧) ص ٢٠٧.
(٤٨) ص ٢١٠.
(٤٩) ص ٢١٢.
(*) مؤلف كتاب خلاصة الاقتصاد ونبذة من التاريخ الاقتصادى.
(**) المرجع السابق ص١١٤. ويلاحظ أن أسلوب الأسئلة والأجوبة كان أسلوبا معتمدا فى الكتابات الماركسية فى أوربا فى ذلك الحين.

(٥٠) ص١١٨.
(٥١) ص١١٩.
(٥٢) ص١١٥.
(٥٣) ص١٢١.
(٥٤) محمود أبوالفتوح - المسألة المصرية والوفد - ص١٣.
(٥٥) المرجع السابق - ص٢٣٤.
(٥٦) المرجع السابق - ص٢٣.
(٥٧) المرجع السابق - ص٣١.
(٥٨) المرجع السابق - ص٩٠.
(٥٩) راجع محضر النقاش مع عصام الدين حفنى ناصف. الملاحق.
(٦٠) محمد أنيس - دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ - ص٢٥٢.
(٦١) محمود أبوالفتوح - المرجع السابق - ص١٣٩.
(٦٢) المرجع السابق - ص١٤٩.
(٦٣) محمود أبو الفتوح - مع الوفد المصرى - ص٨٦.
(٦٤) عبدالعظيم رمضان - المرجع السابق - ص٢٠٩.
(٦٥) محمد أنيس - المرجع السابق - ص٢١.